مجلة الرائد

العدد : ٢٠٨ الموافق في ذو الحجة ١٤١٩ هجري ٤ / ١٩٩٩ ميلادي

عنوان المقال : من أوراق مهاجرة : ماذا يجري في بلادنا ؟!	بقلم : نوال السباعي

سؤال بسيط ، منطقي .. ما فتئت الأجيال تطرحها على نفسها ، وعلى أسلافها منذ أكثر من خمسين عاماً ، ولعل أحد العوامل الرئيسية التي جعلت هذا السؤال ملحاً لدى الصغير والكبير ، هو تلاحق الأحداث بصورة لاهثة خلال الأسابيع الأخيرة ، إلى درجة أصابتنا جميعاً باختناق فكري ، واحتباس انفعالي عاطفي .. خاصة بعد وفاة الملك حسين ، واعتقال زعيم الحزب الشيوعي الكردي عبد الله أوجلان .. وما تسبب به هذان الحدثان من انكشاف عريض لأوضاع أمة منكوبة ، ممزقة ، محطمة ، ضائعة هويتها ، منتهك عرضها ، مذبوح تاريخها ، مغيب حاضرها عن الوعي ، وقد انهمك أعداؤها في دأب لاغتيال مستقبلها القريب منه والبعيد !.

ماذا يجري في بلادنا ؟ .. سؤال ينطلق على ألسنة أبنائنا في ديار الغربة ، كبيرهم وصغيرهم ، وهم يرون هذه الأحداث الجسام ، تمر بين أنظارهم بكثافة ثقل الرصاص على جملتهم العصبية الغضة الطرية .. وكأنه لا يكفيهم الصبر المر على أوحال الحضارة الغربية ، التي اضطروا لمعايشتها ومعاناتها صباح مساء .. حتى انتبهوا في غمرة الأحداث ليجدوا أنفسهم - وهم الذين كانوا يعيشون نشوة الراحة في ظل مشاعر الارتقاء بنسبهم الحضاري الرفيع - وجها لوجه أمام حاضر كريه ، وقد كشر عن أنيابه يريد أن ينهش بها كل اقتناع لديهم بالعودة إلى بلادهم !! هذه البلاد التي تقدم لهم يوماً فيوماً ، على مسرح الحضور العالمي ، صوراً قبيحة مشوهة عن أمة كانوا يفخرون بالانتساب إليها .

فلقد رأوا وخلال ثلاثة أشهر فقط .. العجب العجاب ؛ فمن احتفالات غير منطقية ولا مستساغة بعيد ميلاد أحد الزعماء العرب ، إلى انقلابات بيضاء تتغير فيها مصائر الشعوب والبلاد ، دون أن يفهم أحد أبعادها ولا أهدافها ، إلى جنازة عالمية جعلتهم يبكون في ألم رحيل ملك لم يعرفوه من قبل .

ومن هجمة أمريكية بريطانية ، تبثُّ على الهواء مباشرة ، على العراق الذي فرغوا لتوهم من دراسة الخلافة العباسية فيه والتي كانت بغداد عاصمتها ، مركزاً عالمياً للهدى ، والنور ، إلى رئيس عراقي يحتفل في مناسبة غير مفهومة ، ويطلق الرصاص من بندقية لم يفهموا لماذا كان يحملها ، ويدخن سيجاراً كوبياً فاخراً .. بينما تعرض في جميع تلفزيونات الكرة الأرضية صور الضحايا من أطفال شعبه الذي يموت بؤساً وذلاً ! . ومن حبٍ وعشق منقطع النظير ، ومن طرف واحدٍ ، هو رئيس السلطة الفلسطينية نحو رئيس الولايات المتحدة الأمريكية ، الذي جاء ينتزع من هذا ، إلغاءً جماعياً

تهريجياً لثلاثة أرباع الميثاق الفلسطيني ، إلى هدم لمنازل الفلسطينيين ، وقهر ، ولا ناصر لهم من إخوانهم ، بينما تشهد استهتاراً إسرائيلياً فاضحاً بالعرب والمسلمين ، الذين يتفرجون كيف تداس كرامتهم وأعراضهم ووجودهم بأحذية الجند الثقيلة التي تتقدم بقسوة وحقد لتضم الأراض التي بارك الله حولها إلى حوزة الدولة اليهودية ، شبراً فشبراً ، ومتراً فمتراً .. دون أن يستطيع أحد تحريك شيء .. سوى الدموع والزفرات التي تعبر عن آلام الشعوب وغليانها .

ومن حرب تندلع بين إريتريا وجارتها إثيوبيا ، إلى فوز زعيم عربي آخر بنسبة ٩٩,٩٨% ليصبح رئيساً مدى الحياة تقريباً ، في دولة ديمقراطية تقدمية لم يوجد فيها إلا مائتين وسبعة عشر شخصاً قالوا له : لا ؟؟! .

ومن محاكم جماعية لأعضاء جماعة إسلامية متهمين بالإرهاب ، إلى اعتقال زعيم الأكراد ، وحمله مقيداً مخدراً ، وفي صورة محزنة ، ذكرتنا - على الرغم من خلافنا جذرياً مع الرجل - بكل الذين يُحملون مخدرين ، مقيدين إلى محافل الموت الظالم في بلادنا ، حيث يوَلّدُ ذلك موتاً ظالماً آخر من قبل الباحثين عن الحرية من أبناء شعوب لا تعرف إلا القهر ، والذل ، والسحق ، والكبت ! .

أفلا يحق لأبنائنا بعد هذا كله - وهو ليس إلا غيضاً من فيض- أن يسألوا .. عن الذي يحدث في بلادنا !! ، فحتى الأوروبيون أصبحوا يختنقون بأخبارنا وعجزنا ، ويعترفون صراحة بمسؤولية بلادهم التاريخية عما يجري في بلادنا ، ولكن الذي لا يعرفه هؤلاء .. إنما هو مسؤوليتنا نحن عن هذه المهازل ، التي ما كاد يسقط القناع الهش عنها ، حتى تتبدى عن نوازل تدع الحليم حيران أسفاً .

***

لقد اكتشف العالم العربي وخلال الأشهر القليلة الماضية ، ويوماً فيوماً ، أن نظريات المؤامرة التي تداولتها الأجيال همساً خلال نصف قرن ، ليست إلا واقعاً عشناه ونعيشه ، ليس فيه أدنى احتمال لأية نسبة من الخطأ ، وليكتشف أن " سايكس - بيكو " لم تكن مؤامرة استعمارية فحسب ، بل حقيقة كرسناها عاماً بعد عام ، ونحن نسمع بفشل كل محاولة للوحدة قامت في بلادنا العربية - اللهم إلا تجربة دولة الإمارات العربية المتحدة .

فكيف لا نسأل ، ويسأل معنا أولادنا ، عن ما يجري في بلادنا ، من اغتيال يومي مركز لتلك المبادئ العظيمة التي جعلنا البعض نعيش معها ولها نصف قرن من الزمان ؛ بالتطبيل والتزمير .. والحقد والغضب والثورات ، التي سقطت في مستنقعات آسنة ، وخانت تلك المبادئ والشعارات ، بدءاً

بادّعاء الوحدة والحرية ومروراً بالاشتراكية والمساواة ، وانتهاءً بحكم الشعب والتقدمية !

إننا نعيش اليوم أحط ما يمكن لأمة أن تعيشه ، من تشويه للحقائق ، وادعاء للديمقراطيات ، وكذبٍ مخز على الشعوب ، واضطراب مجنون في ميزان القيم في دول اكتشفنا على حين غرة أنها ليست إلا هياكل سياسية يحميها جيوش وقوات خاصة ، وقوات أشد خصوصية ، وليس فيها من قواعد الدول الحديثة شيء ، لا على مستوى البنى التحتية ، ولا على مستوى البناء الإنساني والاجتماعي . وكذلك اضطراب هذا الميزان في أمم مُزقت وشُردت وحُطمت ، على يد معاول الهدم القومية التي استعملت في الانتقام لثارات تاريخية حاقدة ، فما كان الغرب ليغفر قط لصلاح الدين الأيوبي ، أن أخرجه من بيت المقدس ، وما كان الغرب قط ليسمح بقيام دولة للأمة الكردية ، التي لم تفهم كشقيقتها العربية شيئاً من دروس التاريخ ، فراحتا تجربان حظهما من الضياع في سراديب الماركسية واللينينية ، وبين الشيوعية والقومية ، بقينا خمسين عاماً في المتاهة نبحث عن مخرج !! .

ماذا يجري في بلادنا ، وفي منطقة الطوق المحيط بإسرائيل منها على وجه الخصوص ؟ أهو المرحلة الأخيرة من مشروع استبدال دول الطوائف والأقليات بدولة الأمة الواحدة التي تجمعها العقيدة ، والمرجع الحضاري ، والامتداد الجغرافي التاريخي الواحد ، أم هو الرضى الكامل ، أو فرض الرضى الكامل .. بما كان الممثل السوري (دريد لحام) قد عبر عنه وقبل عشرين عاماً في مسرحيته الشهيرة " غربة " والتي ذهب كل ما قاله فيها مثلاً على ألسنة الناس خاصة عندما قال عن إسرائيل إنها أصبحت دولة شقيقة !! وأنه لا ينقصنا كعرب إلا شيئاً من الكرامة بين أمم الأرض ! .

ولا يخرج حالنا اليوم عن ذلك .. فها هي " إسرائيل " في عقر دورنا ، تلاحق الفضائيات أخبارها ، وتورد أقوال مسؤوليها بمناسبة ودون مناسبة ، وتهتم بكل شاردة وواردة تجري فيها .. ولكننا وللأسف .. لم نستطع ولا حتى أن نماثلها في استعلائها بمبادئها واعتزازها بانتمائها الديني ، وتوفيرها للحرية ، وبنائها الدؤوب للإنسان الذي هو عماد قيامها شوكة في حلوقنا ، نتناول فطورنا وعشائنا يومياً .. على الرغم من وجودها فيه ، وعلى الرغم من الجراح التي يسببها هذا الوجود كلما ازدردنا الحقائق التي نعيشها !

أم أن الذي يجري في بلادنا اليوم هو إفراز جماعي واستسلام كامل أمام هجمة البلاء العالمي الموحد ، الذي أصبح فيه " حاميها حراميها " وقد سادت إلى درجة اليأس المطبق ، اقتناعات راسخة بأن التغيير مستحيل ، وتجرأ الناس على امتداح الطغاة إلى درجة امتهان أنفسهم ، وسقوط لحم وجه

التاريخ خجلاً منهم ، وحيث أصبحت النظم الاستبدادية ، توصف بالديمقراطية ، واستباحت الجمهوريات توريث الحكم من الأب لابنه .. وهاجت المجتمعات وماجت بين عنف السلطات ، وعنف الجماعات المقهورة ، وبين أقصى درجات التفلت ، وأقصى درجات التزمت ، وضياع أغلبية الناس ، وانصرافهم عن هؤلاء وهؤلاء ، من خلال تمييع معاني المسؤولية الفردية ، وانفراط عقد النظم الاجتماعية ، واضطراب أوضاع الأسرة ، واختلال دور كل من الرجل والمرأة في الأسرة والمجتمع .

***

هل صورة ما يجري في بلادنا ، هي على هذه الدرجة التي أراها من الفوضى والبلاء الذي عم وطم ؟؟ أم أنها حقبة انكشاف الحقائق ، وظهورها كاملة كما هي ، على الرغم من أن الأغلبية من أبناء بلادنا ، تبدو غير مكترثة بما يجري .. وقد ملت الشعارات الفارغة ، والقهر الجماعي ، والكذب المدروس ، وانصرفت عن ذلك كله ، إلى حياتها تبنيها بالكفاح اليومي ، وبالتوكل على الله كل فجر جديد ، بحثاً عن الخبز وعن الحياة .

وأين الحل ، وكيف هو الخروج ، وأين السبيل إلى الخلاص ؟ هل هو معرفة الواقع ، وحقيقة ما يجري في بلادنا ، والملابسات التاريخية لهذا الواقع الذي نعيشه ، ووضع الأصابع على مكان الألم ، كخطوة أولى لتشخيص الداء ، ووصف الدواء ؟ وهل هذه هي المرة الأولى التي تصل فيها هذه الأمة إلى هذه الدرجة من التمزق والهوان والهزيمة ؟!! .. إنها ليست المرة الأولى ، **ولكننا قوم لا نعرف تاريخنا ، ولا نستقرئه ، ولا نستحضره ، فضلاً عن انصرافنا عامة عن كتابته وتسجيله وتمحيصه وإثباته في ضمير الأجيال التي لم تُؤت من شيء كما أوتيت من غياب هذا التاريخ ، وعدم فهم دروسه ، فكانت ترتكب وبصورة عجيبة ، نفس الأخطاء ، وتسقط في نفس الجحور ، وتلدغ من نفس الأفاعي مرة بعد مرة !.**

إلا أننا وعلى الرغم من ذلك مازلنا نعلم يقيناً .. بسبب من وعد الله أولاً . ومن استقراء تاريخنا ثانياً .. أن هذه الأمة - على الرغم من كل ما يجري فيها اليوم - قادرة بإذن ربها على القيام من جديد ، والوقوف على قدميها ، واستعادة ثقتها بربها ، وبنفسها ، وبرسالتها ، ومباشرة طريق البناء والعطاء ، طارحة عن كاهلها مقولات الهزيمة والانسلاخ عن الذات ، وعن الهوية الدينية التي أصبحت تُميز أمم الأرض قاطبة .. إلا أمة العرب المُصرّة - في غالب أقطارها - على الانسلاخ من هذه الهوية .. لتزداد هواناً على هوانها ، وهي التي نست الله فأنساها نفسها ، لكنه سبحانه قد ترك لها هامشاً من رحمته .. {

وإن عدتم عدنا ...} **!!** فالخير معقود على هذه العودة ، المُناطة بهذه الغالبية من سواد الشعب الصابر ، المكافح ، المتألم .. الذي يحب الله ورسوله ويتطلع إلى غد آخر ، مشرق بالخير ، والعمل ، والكد ، واستئناف الجهاد بأرفع معانيه .. جهاد تغيير النفوس ، وصناعة الرجال القادرين على حمل أمانة النهوض بهذه الأمة ، والذين يغيرالله بهم هذا الواقع الكئيب الأليم الذي نحياه ، وعندما يفقهون أن سر التغيير وقف على هذه القلوب ، وهذه العقول ، وهذه النفوس .. وأن سنن التغيير مرتبطة بهذه الأجيال التي تتساءل في ألم وحرقة عما يجري في بلادها ، وهي لا تدري أن البلاء كل البلاء ، إنما جاءنا من أنفسنا ، ومن فهمنا القاصر ، ووعينا الذي ينبغي أن ندخله آلات النبذ الجبارة ، لتُسقط عنه أوحال العبودية ، وجراثيم الأنانية الفردية ، والتشبث بالهوى الذي اتخذناه من دون الله إلهاً .. ونحن نظن في أنفسنا العلم والفهم والقدرة على التغيير بأقصر الطرق وأشدها بلاءً ، وحمقاً **!!** .